

الوافي في الوفيات

فبادرها المملوك لبنائها متعرفاً وبارجها متعرفاً وبولائها متمسكاً وبثنائها متمسكاً
شوقاً إليها لا يبيد ولو عمر عمر لبید واقفاً على آمال اللقاء وقوف غيلان بدار مية
عاكفاً على أرجاء الرجاء عكوف توبة على ليلى الأخلية وإيتولاه في حالتيه طاعناً
ومقيماً ويجعل السعد له حيث حل خدينا والنجح خديماً بمنه وكرمه .
فكتبت الجواب إليه C تعالى :

تنوح حمامات اللوى فأجيب ... ويحضر عندي عائي فأغيب .
وقد مل فرش السقم طول تقلقي ... عليه بجني إذ تهب جنوب .
ولما بكت عيني نواك تعلمت ... دموع السحاب الغر كيف تصوب .
أيا برق إن حاكت قلبي فلم يكن ... لنارك مع هذا الخفوق لهيب .
ويا غيث إن ساجلت دمعي فإنه ... يفوتك مع ذا آنة ونحيب .
ويا غصن إن هزت معاطفك الصبا ... فما لك قلب بالغرام يذوب .
إذا جف جفني ذاب قلبي أدمعاً ... فإلى قلب عاد وهو قليب .
أبيت بجفن ليس يعرف ما الكرى ... وأي حياة بالسهاد تطيب .
وقلب إذا ما قر عاداته لوعة ... فيعروه من بعد القرار وجيب .
إلا أن دهرًا قد رمانى بصرفه ... لدهر إذا فكرت فيه عجيب .
ويكفي بأني بين أهلي ومعشري ... وصحبي لبعدي عن حماك غريب .
وينهى ورود المثال الذي تصدق به منعماً وأهداه خميلة فكم شفى زهرها المنعم من عمى
وبعته فلادة فكم أزال درها المنظم من ظما وإقامة حجة على أن من أرسله يكون في الإحسان
مالكاً ومتمماً فبللت برؤيته غلة الظماء البرح وعانيت ما شاده من بنيان البيان فقلت
لبلقيس عيني ادخل بالصرح وقمت من حقوقه الواجبة علي بما يطول فيه الشرح وتلقيته بالضم
إلى قلب لا يجبر منه الكسر غير الفتح واسمت ناظري من طرسه في الروض الأنف وقسمت حليه على
أعضائي فللجيد القلائد وللفرق التيجان وللأذن الشنف ووردت منه الصافي والتحت ظله
الصافي واجتليت من وجهه بشراً قابله الشكر بالقلم الحافي وعكفت منه على كعبة الفضل
فإما ما نشر في استلامي وطوى في طوافي وكلفت قلبي الطائر واباً فلم تقو القوادم وظهر
الخوى في الخوافي وقلت هذا الفن الفذ الذي ما له ضريب وهذا وصل الحبيب البعيد قد نلته
برغم الرقيب القريب .

فيا عيني بيتا في اعتناق ... ويا نومي قدمت على السلامة .

وأقسم أن البيان ما نكب عما دبحه مولانا ونكت ولا أجراه إلا على لسانه إلا لما سكت
البلغاء وبكت ولا آتاه هذه النقود المطبوعة إلا وقد خلصت القلوب من رق غيره وفكت ولا وهبه
إلا هذه الكلم الجوامع إلا أن الأوائل أحسوا بطول رسائلهم فقطعوها من حيث رقت والصحيح ركت
فما كل كاتب يجده فم ولسانه فيه قلم ولا كل متكلم حسن بيانه تأتم الهداة به كأنه علم ولا
كل يبلغ إذا خاطب الأولى كلا وإذا كلم العدو كلم لأن مولانا حرسه إلا تعالى لا يتكلف إذا
أنشأ ولا يتخلف إذا وشى والسجع عنده أهون من النفس الذي يردده وأخف والدر الذي يقذفه من
رأس قلعه أكبر من الدر الذي في قعر البحر وأشرف وإذا راض قلمه روض الطروس من وقته وإذا
أفاض كلمه فوض البيان إليها أمر مقتته ومقتته وما كلمه إلا بحر والقوافي أمواج وما قلمه
إلا ملك البلاغة فإذا امتضى يده ركضت به من الطروس على حلل الديباج فلهذا أخملت رسائله
الخمائل وتعلمت منه الصبا لطف الشمائل وأخذت بآفاق البلاغة فلها أقمارها الطوالع
ولغيرها نجومها الأوافل وانتقت أعالي الفضائل وتركت للناس فضالات الأسافل .
وهذا الحق ليس به خفاء ... فدعني من بنيات الطريق .
فأما دره الذي خلطه الجناس وخرطه في ذلك السلك فما أحقه وأولاه بقول ابن سناء الملك :

فذا السجع ليس في النثر مثله ... وهذا جناس ليس يحسنه الشعر